التنوع الإنساني في القرآن الكريم وأثره في تحقيق

السلم المجتمعي(دراسة فكرية)

م. م. جنان حاتم نوري*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين .

تمثل ظاهرة التنوع الإنساني مظهراً من مظاهر الوحدانية والقدرة الإلهية لله عز وجل على خلق الاضداد على اختلاف ألوانه وأنواعه ، كما قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ ففيها دلالة واضحة على التنوع المحسوس والمشهود وسيأتي بيان معنى هذه الآية ، وبالتالي فإن هذا التنوع وخلق الأضداد بدءاً من خلق الإنسان على اختلاف لغاتهم وألوانهم وثقافاتهم وانتمائهم ، وما خلق لهم وسخر لهم مما في السموات والارض واختلاف الليل والنهار ونحوها ، إنما يدل على عالميَّة الثَّقافة وتعميم الثقافة بمنطق إنسانيّ، والانتقال بالتَّراث المحليّ إلى آفاق إنسانيّة عالميّة بهدف إيجاد تقارُب بين الثَّقافات في إطار التعدُّد والتنوُّع الثقافيّ.

إن أساس التنوع بشكل عام سواء كان ذلك التنوع البشري كالتنوع في الجنس كالذكر والأنثى أو التنوع في اللغات أو الثقافات أو اللون ، فكل تلك المظاهر تثري وتساهم في تقبل التعددية

* جامعة تكريت / كلية العلوم الاسلامية / قسم العقيدة و الفكر الاسلامي

الفكرية وتحقيق السلم المجتمعي ، فكما أن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته أن يكون هناك تنوعاً في الجنس البشري ، فلا بد من تقبل التنوع الفكري الذي يساهم في الحفاظ على السلم المجتمعي .

فالتنوع نوعان تنوع حسي مشاهد : وهو المتمثل بالاختلاف في اللون واللغة والجنس من الذكورة والأنوثة ، أو كان ذلك التنوع في المخلوقات الأخرى كاختلاف الحاصل في الليل والنهار والاختلاف الحاصل في المخلوقات وتباينها ، وهذا كله مشاهد محسوس وظاهر ، فهو يسهم في تقبل فكر التنوع الثقافي والديني والفكري وبالتالي فإن هذا التنوع المشاهد المحسوس يسهم في بناء السلم المجتمعي ويعزز من العلاقات بين الشعوب من جهة وبين ابناء الشعب الوأحد من جهة أخرى .

لذلك كان عنوان بحثي ((التنوع الإنساني وأثره في تحقيق السلم المجتمعي ـ دراسة فكرية ـ)) وقد قسمته على مبحثين ، تناولت في المبحث الأول التعريف بالتنوع من جهة اللغة والاصطلاح ومن ثم عرفت السلم المجتمعي وجعلته في مطلبين ، أما المبحث الثاني فبينت فيه أنواع التنوع المذكور في القرآن الكريم ، ومن ثم أثر التنوع في تحقيق السلم المجتمعي ، وقد جعلت هذا المبحث في مطلبين ومن ثم الخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع .

فكانت الخطة كالآتي :

المبحث الأول / المفاهيم النظرية (: التنوع ، السلم) .

المطلب الأول / تعريف التنوع لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني / تعريف السلم المجتمعي لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني / التنوع المشاهد المحسوس أصل في التنوع المعنوي الفكري

المطلب الأول / التنوع الحسي المشاهد

المطلب الثاني/ ظاهرة التنوع وأثرها في تحقيق السلم المجتمعي .

المبحث الأول / المفاهيم النظرية (: التنوع ، السلم المجتمعي) .

المطلب الأول : تعريف التنوع لغة واصطلاحاً

أولاً / التنوع لغة :

النَوْعُ أخصُّ من الجنس. وقد تنوع الشيء أنواعا[١]، والتنوُّع قد يطلق ويراد به في اللغة : "التذبذب وَالِاضْطِرَاب"[٢] ، وفي كلام العرب : "تَنَوَّعَ فُلانٌ فِي الكلاَم تَنَوُّعاً"[٣] .

وقيل : "النوع من الشيء الصنف وتنوع صار أنواعا ونوعته تنويعا جعلته أنواعا منوعة قال الصغاني النوع أخص من الجنس وقيل هو الضرب من الشيء كالثياب والثمار حتى في الكلام"[٤].

و"تنوَّعتِ الأشياءُ: تصنَّفت وصارت أنواعًا "تنوّعت الحُلُولُ بتنوُّع المشاكل– تنوّعت الأخبارُ– ميزة هذا البستان تنوُّع الفاكهة فيه"[٥].

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ١٢٩٤/٣.

(٢) جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، ٣/ ١٣٠١ ، و المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ) المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ٣٧١/٢.

(٣) تهذيب اللغة ، الأزهري ، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م ، ١٦٨/٣ .

(٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ،أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت: نحو ٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية – بيروت ٦٣١/٢ .

(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة ،د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل ، عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م ٢٠٣٦/٣ .

٢. التنوع اصطلاحاً :

النوع: "اسم دال على أشياء كثيرة مختلفة بالأشخاص"[١] .

ويقسم التنوع على قسمين اساسيين هما :

١. النوع الحقيقي: "كل مقول على وأحد أو على كثيرين متفقين بالحقائق في جواب: ما هو، فالكلي جنس والمقول على وأحد؛ إشارة إلى النوع المنحصر في الشخص، وقوله على كثيرين ليدخل النوع المتعدد الأشخاص"[٢].

٢. النوع الإضافي: "هي ماهية يقال عليها وعلى غيرها: الجنس، قولًا أوليًّا؛ أي: بلا واسطة، كالإنسان بالقياس إلى الحيوان، فإنه ماهية يقال عليها وعلى غيرها، كالفرس والجنس"[٣] .

وهذا التقسيم عند المناطقة والأصوليين ، والمقصود بالتنوع الذي هو مدار البحث الأصناف والأنواع والمجموعات التي ترتبط بشكل معين أو نسق معين ، أو هو عبارة عن : مجموعة أشياء أو أجزاء أو مكوّنات مُختلِفة .

المطلب الثاني : تعريف السلم المجتمعي لغة واصطلاحا .

السلم المجتمعي كلمة أو مصطلح مركب من مفردتين وهما (السلم) و (المجتمع) ، فالسلم لغة مشتق من الفعل الثلاثي (سَلَمَ) قال ابن فارس[٤] . رحمه الله . : "السين واللام والميم معظم

---

(١) التعريفات، الجرجاني ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م، ص:٢٤٧ .

(٢) التعريفات، الجرجاني ص:٢٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ص:٢٤٧ .

(٤) هو : "الإمام العلامة اللغوي المحدث أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرازي، المالكي، اللغوي، صاحب كتاب المجمل ومعجم مقاييس اللغة، ، مات بالري سنة خمس وتسعين

بابه من الصّحّة والعافية؛ ويكون فيه ما يشذُّ، والشاذُّ عنه قليل، فالسّلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذَى. قال أهلُ العلم: الله جلَّ ثناؤُه هو السلام؛ لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء"[١] .

قال ابن منظور[٢] : السَّلْمُ السِّلْمُ الصلح يفتح ويكسر ٠٠٠ وقوم سِلْمٌ سَلْمٌ مُسالِمونَ وكذلك امرأَة سِلْمٌ سَلْمٌ تَسالمُوا تصالحوا"[٣] .

وتدور المعاني اللغوية لهذه المفردة حول : الصلح الاستسلام والطاعة والخضوع والسلامة والبراءة من العيوب والنقائص .

أما كلمة المجتمع فهي مشتقة من الفعل (اجتمع) .

وفي الصحاح : "جمعت الشيء المتفرق فاجتمع. والرجل المجتمع: الذي بلغ أشده. ولا يقال ذلك للنساء. ويقال للجارية إذا شبت: قد جمعت الثياب، أي قد لبست الدرع والخمار والملحفة. وتجمع القوم، أي اجتمعوا من ههنا وههنا. وجماع الناس بالضم: أخلاطهم، وهم الأشابة من قبائل شتى"[٤].

وثلاث مئة". ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠٣/١٧ – ١٠٥، بغية الوعاة للسيوطي ٣٥٢/١.

(١) معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.٦٨/٣ .

(٢) هو: "محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب (لسان العرب) : الإمام اللغوي الحجة. من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري. ولد بمصر (وقيل: في طرابلس الغرب) وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم ولي القضاء في طرابلس". ينظر: فوات الوفيات ٢/ ٢٦٥ ، والدرر الكامنة ٤/ ٢٦٢ وحسن المحاضرة ١/ ٢١٩ ومفتاح السعادة ١/ ١٠٦ .

(٣) لسان العرب ، ابن منظور ،المحقق : عبد الله علي الكبير + محمد أحمد حسب الله + هاشم محمد الشاذلي ، القاهرة ، مصر ٢٤٤/٣ .

(٤) الصحاح ، للجوهري ١١٩٨/٣ .

والجميع : "الحي المجتمع"[١] .

فإذا جمعنا المصطلحيين معا وجدنا أنفسنا أمام مصطلح السلم الاجتماعي الذي يجمع معاني اللفظتين، ويمكن تعريفه بأنه : "حالة الاستقرار والطمأنينة التي تشيع بين الناس بحيث يستطيعون التفرغ لأعمالهم، ومزاولة نشاطاتهم، وتنظيم أمور حياتهم الاجتماعية وهم آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم، بعيداً عما يهدد وجودهم من حالات الفقر والجهل والعوز والبطالة، وما يثير مخاوفهم واضطرابهم من انتشار الجريمة والانحراف، وما يقض مضاجعهم من أخطار خارجية وتهديدات أجنبية" [٢].

كما يعبر أيضا عن حالة الوئام والانسجام السائدة بين ابناء المجتمع الوأحد بكل قواه وشرائحه على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم. على اعتبار أن السلم حاجة أساسية لاستمرار الحياة وديمومتها، وأن فقدانه يورث القلق والخوف والاضطراب .

المبحث الثاني

التنوع المشاهد المحسوس أصل في التنوع المعنوي الفكري

على الرغم من دعوة الإسلام لوحدة البشر وأخوتهم وأصلهم المشترك إذ لا يوجد دين دعا إلى الأخوة التي تتجسد في الاتحاد والتضامن، والتساند والتآلف، والتعاون والتكاتف، وحذر من التفرق والاختلاف والتعادي، مثل الإسلام في قرآنه وسنته .

وعلى الرغم من دعوة القرآن تلك إلى الوحدة والتآلف إلا أنه قد أكد أيضا على أن الاختلاف وتنوع الفرق والمذاهب داخل الدين الإسلامي ، حقيقة نطقت بها آياته، فتكررت فيها مادة ((

---

(١) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (ت: ٥٧٣هـ) ،المحقق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله ،دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية) ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ١١٦٧/٢ .

(٢) السلم الاجتماعي في القرآن الكريم مركزيته وأبعاده الحضارية ، د. محمد زرمان ، مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ، جامعة باته ، ص: ٢٣٨ .

الاختلاف)) وهي تدل على مدى اتساع مساحة ألّتالف وبالتالي التعددية، كما أن التنوع يشكل ظاهرة طبيعية، بل سمة ثابتة في جميع الأديان السماوية والوضعية .

ومن هذه الحقائق التي أكدها القرآن الكريم التنوع الحسي والمتمثل بالتنوع الجنسي وتنوع اللون واللسان واللغة وهي كلها تمهيد لتقبل فكرة التنوع الثقافي رغم الاتفاق بين جميع الشرائع السماوية على وحدانية الخالق وضرورة العبادة والاعتراف بالنبوة والمعاد ، فهي المرتكزات الأساسية التي تتركز عليها جميع الشرائع السماوية .

وعليه فقد قسمت هذا المبحث إلى مطلبين وهما :

المطلب الأول / التنوع الحسي المشاهد

هذا التنوع كثير في القرآن الكريم وأعني به التنوع المشاهد المحسوس ، وأقصد بالتنوع المشاهد المحسوس الذي يدرك بالحوس الخمسة التي هي من أسباب العلم ، وهذا التنوع المشاهد المحسوس ينقسم إلى أنواع يمكن وضعها في النقاط الآتية :

أولاً : **التنوع الجنسي:**

ففي القوميات والأجناس تعددية وأن القرآن يعتبرها آية من آيات الله في الاجتماع الإنساني ، وفي الشعوب والقبائل هناك تعددية تثمر التمايز الذي يدعو القرآن إلى توظيفه في إقامة علاقات التعارف بين الفرقاء المتمايزين، وقد أشار القرآن الكريم في مواضع متعددة إلى هذا النوع كما في

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١)

وقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾(٢) ، وقوله تعالى :﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : (خلقناكم من ذكر وأنثى) "نزلت هذه الآية في الزجر عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء"(٥) .

وغيرها من الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن تنوع الجنس ، وهذا الأمر لا شك أنه مشاهد ومحسوس ، فجميع الناس يدركون الفرق بين الذكر والأنثى ؛ بل وليس هناك حاجة لإقامة البراهين العلمية التي تبين هذا الاختلاف فهو ظاهر للعيان ومشاهد .

وهذا التفريق بين الأثنين ليس في الخدمة(٦) فقط بل في غالب شؤون الحياة ، ولاسيما فيما يتعلق بإدارة الدولة ، أو فيما يتعلق بتحقيق الاستقرار ؛ لأن الأُنثى لا تصلح لما يصلح له الذكر(٧).

وهذا التنوع الجنسي يسهم في تحقيق السلم المجتمعي ؛ القائم على بناء الأسرة الحميدة فكلما كانت الأسرة متماسكة وقوية وقائمة على أساس الحوار والتفاهم قاد ذلك إلى نوع من الاستقرار المجتمعي .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٦.

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٥.

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٢٤ .

(٤) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

(٥) التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ) عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ، ٣٦٣/٢٠ .

(٦) ينظر: تفسير الماوردي ،النكت والعيون، للماوردي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان – ٣٨٧/١.

(٧) ينظر: زاد المسير في علم التفسير ٢٧٦/١.

فلو كان الجميع جنساً وأحداً لا يمكن أن تقوم الحياة وتستمر وبالتالي يتكاثر المجتمع وتستمر البيئة الصحيحة التي يسوها الاستقرار ولا شك إن هذا الأمر هو من الحكمة الإلهية في بقاء الجنس البشري .

بل إن العلماء أكدوا أن اختلاف الخلق في حد ذاته هو سبب من الأسباب التي تدعو الإنسان حين يتدبر في خلق الله إلى الإيمان بوحدانية الله عز وجل، والواقع يؤكد أن الإسلام أكد على ضرورة الاعتراف بالتعددية الدينية وإمكانية التعايش مع الآخر المختلف دينيا والابتعاد عن العنف وفرض الرأي، وهذا ما قرره القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [1].

ثانياً / التنوع العرقي والقومي:

ويظهر ذلك التنوع في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [2] .

وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : "نزلت في ثابت بن قيس وقولِه في الرجل الذي لم يفسح له : أنت ابن فلانة "[3] .

والثاني : "أنه لمّا كان يوم الفتح أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بلالاً فصَعِد على ظهر الكعبة فأذَّن ، وأراد أن يُذِلَّ المشركين بذلك ، فلما أذَّن قال عتاب بن أَسِيد : الحمدُ لله الذي قبض أسيداً

(1) سورة الزمر ، الآية ٤١ .

(2) سورة الحجرات، الآية :١٣ .

(3) زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة. ٤٠٥/٥ .

قبل اليوم ، وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسودِ مؤذِّناً؟! وقال سهيل بن عمرو : إن يَكْرَهِ اللهُ شيئاً يغيّرِه . وقال أبو سفيان : أمّا أنا فلا أقول شيئاً ، فإنّي إن قُلتُ شيئاً لَتَشْهَدَنَّ عليَّ السماءُ ، ولَتُخْبِرَنَّ عنّي الأرض ، فنزلت هذه الآية"[١]

والثالث : "أن عبداً أسود مرض فعاده رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قُبض فتولَّى غسله وتكفينه ودفنه ، فأثَّر ذلك عند الصحابة ، فنزلت هذه الآية"[٢] .

فقد بيّن الله عز وجل في هذه الآية الكريمة فائدة التنوع وأهميته ، وهي التعارف وفيه وجهان : **أحدهما** : أن فائدة ذلك التناصر لا التفاخر ، **وثانيهما** : أن فائدته التعارف لا التناكر ، واللمز والسخرية والغيبة تفضي إلى التناكر لا إلى التعارف وفيه معان لطيفة الأولى : قال تعالى : {إِنَّا خَلَقْنَاكُم} وقال : {وَجَعَلْنَاكُمْ} لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل {شُعُوبًا} فإن الأول هو الخلق والإيجاد ، ثم الاتصاف بما اتصفوا به ، لكن الجعل شعوباً للتعارف والخلق للعبادة[٣] .

ثالثاً / التنوع اللغوي والاثني:

وقد دل على هذا التنوع في اللغة بعض آيات القرآن الكريم منها قوله جل شأنه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [٤] .

والمقصود من هذه الآية أن الحكمة من التنوع في اللغات والألوان لبيان عظيم القدرة الإلهية على الخلق ، فتكون اللغات من العربية والعجمية وغير ذلك ، وقوله تعالى : { وألوانِكم } لأنَّ الخلق بين أسود وأبيض وأحمر ، وهم ولد رجل وأحد وامرأة وأحدة[٥] .

---

(١) المصدر نفسه ٤٠٥/٥ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ٤٠٥/٥ .

(٣) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ ٢٨/٩١.

(٤) سورة الروم، الآية :٢٢.

(٥) زاد المسير في علم التفسير ٩٤/٥ .

وقيل : المراد باختلاف الألسنة اختلاف النَّغَمات والأصوات ، حتى إنه لا يشتبه صوت أخوين من أب وأم والمراد باختلاف الألوان : اختلاف الصُّوَر ، فلا تشتبه صورتان مع التشاكل(١).

رابعا – التنوع الديني:

ويظهر هذا التنوع في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

يخبر ربنا عز وجل أنه خلق الخلق وجعل الذين آمنوا بالله تعالى على مختلف مذاهبهم من أفضل الناس ، فجعل الإيمان به والتصديق به وبما جاء به الأنبياء والرسل وهو أساس الخيرية والمفاضلة ففي هذه الآية : "يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها" (٣).

فيمكن القول : كيف يدير القرآن التنوع الإنساني؟ وإضافة إلى هذه الأنماط الرئيسية للتنوع الإنساني تحدث القرآن عن أنماط أخرى فرعية بين آحاد البشر كالتنوع –أو بالأحرى التعدد– في الفهوم والآراء، والتفاوت في المنزلة الاجتماعية بين فقر وغنى، وما إلى ذلك، ويصرح القرآن أن التعدد والاختلاف بكافة أشكاله هو محض المشيئة الإلهية ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٤) .

(١) المصدر نفسه ٥/٩٤ .

(٢) سورة الحج: ١٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السعدي ، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م ص:٥٣٥ .

(٤) سورة هود: ١١٨.

ولكن هذا الاختلاف الطبيعي والخلاف الذي يمكن أن ينشب عنه، لا يفضي بالضرورة إلى شرور وتشرذم ومشاحنات وذلك لعاملين اثنين:

١. أن خالق البشر أحد لا شريك له.

٢. وأن الوحدة كانت أصلا بين البشر ثم حدث الاختلاف ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [١] .

فهذه قضية طبيعية والمجتمع لم يحصل فيه الانفكاك والتقسم والتناحر كون هؤلاء خالقهم وأحد وربهم وأحد وهو أعلم بهم ، وعليه يكون الخلاف نتيجة طبيعية ولا يفضي بالضرورة إلى الشر والقبح .

(١) سورة يونس: ١٩.

المطلب الثاني: ظاهرة التنوع وأثرها في تحقيق السلم المجتمعي .

إن القرآن الكريم بوصفه خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض يحتوي على رؤية كلية لماهية الوجود الإنساني وكيفياته وغاياته، وهو ما يتضح عبر شبكة من العلاقات المترابطة التي يتبين منها أولا علاقة هذا الإنسان المخلوق بخالقه وعلاقته بالكون المحيط به وما يضمه من مخلوقات، وعلاقته أخيرا بغيره من بني البشر.

والفكرة الجوهرية في مسألة كيف يدير القرآن التنوع الإنساني؟ هي أن القرآن يشدد على أنه في مقابلة "الوأحدية" التي تسم عالم الغيب ممثلة في الإله الوأحد هناك "التعددية" التي تدمغ عالم الإنسان حيث لا مجال للوأحدية سواء في: العقائد أو الأفكار أو الرؤى والتصورات. أنماط التنوع الإنساني وفي كثير من الآيات يشير القرآن إلى حقيقة التعدد الإنساني وأنه مقتضى المشيئة الإلهية، ويتخذ هذا التنوع أشكالا عدة آليات إدارة التعدد ولما كان التنوع سنة كونية ومشيئة إلهية فإن الضرورة تقتضي وجود آليات يمكنها أن تدير هذا التنوع وتضبط مساره، وحسب المنظور القرآني فإن هناك آليتان رئيسيتان تضطلعان بإدارة التنوع وهما على التوالي: التعارف والتدافع.

١ . التعارف :

ورد مفهوم (التعارف) مرتين في القرآن الكريم في الصيغة الفعلية، حيث قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

هذا هو الموضوع الأول الذي وردت فيه لفظة التعارف .

وجاء في تفسير هذه الآية عند قوله تعالى : { يتعارفون بينهم } قال ابن عباس . رضي الله عنهما: "إذا بعثوا من القبور تعارفوا ، ثم تنقطع المعرفة ، وفي معرفة بعضهم بعضاً ، وعِلم بعضهم

(١) سورة الحجرات، الآية :١٣ .

بإضلال بعض ، التوبيخُ لهم ، وإثباتُ الحجة عليهم . وقيل : إذا تعارفوا وبَّخ بعضهم بعضاً ، فيقول هذا لهذا : أنت أضللتني ، وكسَّبتني دخول النار"[١] ، و{يتعارفون} يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون المعنى يتعارفون مدة إمانتهم التي وقع حشرهم بعدها، وحذف المفعول للدلالة عليها[٢].

والآخر في التعارف: بما جاء في قوله: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [٣]، وتعرفهم يكون على أحد هذين الوجهين.

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [٤] ، فهذه الآية تتضمن أربعة مبادئ رئيسة تنظم العلاقة بين الناس بشكل واضح وهي:

أولا: كلية الخطاب :

فهذه الآية تمثل كلية الخطاب ، فالخطاب إلى الناس كافة، فهذا النوع من الخطاب يندرج تحت مفهوم عالمية الخطاب ، إذ الملاحظ أن سورة الحجرات من السور المدنية التي يتوجه فيها الخطاب من البداية إلى النهاية إلى المؤمنين ((يا أيها الذين آمنوا)) لكنه تبدل في هذه الآية إلى ((يا أيها الناس)) وهذا تحول من العام إلى الخاص في مورد يقتضي تقديم الخاص على العام ليصبح الخطاب إنسانيا عاما.

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، الثعلبي" المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٧/ ١٦ ب، معالم التنزيل ، البغوي، دار المعرفة، ٤/ ١٣٥، بحر العلوم ، السمرقندي ٢/ ١٠٠، زاد المسير في علم التفسير ٢٨٣/٣، "معاني القرآن وإعرابه" للزجاج ٣/ ٢٢.

(٢) التفسير البسيط، للواحدي ٢١٢/١١ .

(٣) سورة الصافات ، الآية : ٥٠ .

(٤) سورة الحجرات، الآية :١٣ .

ثانيا: وحدة الأصل الإنساني :

أنها تستهل بتذكير البشر جميعا أنهم خلقوا من ذكر وأنثى وفي هذا إقرار بوحدة الأصل الإنساني الذي يمهد لقبول التعدد والتنوع فيما يرد من الآية.

قال السعدي في تفسيره : "يخبر تعالى أنه خلق بني آدم، من أصل وأحد، وجنس وأحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء"(١) .

فالآية تحدثت عن الأصل الإنساني وهي كلية في جميع الناس ، فكلهم من أصل وأحد وجنس وأحد ، وهذا الإقرار القرآني بالتنوع في خلق الإنسان يساهم بالضرورة في تحقيق السلم المجتمعي فيما بين الناس انطلاقا من مبدأ الإنسانية الذي يشترك فيه الخلق جميعا ، فلفظ الإنسان لفظ متواطئ يشترك فيها الخلائق ، ولذلك فما دام أن هناك تنوع في الخلق ، فهناك تنوع في الثقافات فلا بد من تحقيق مبدأ السلم المجتمعي .

ووجه الدلالة في الآية أن الله جل وعلا أمتن على الخلق بأنه خلقهم من جنس وأحد وأصل وأحد وهو الأصل المشترك بينهم وهو (مفهوم الإنسانية) ، فإذا عرف الناس أنه لا فضل لأحد على أحد في أصل الخلق وجنس الخلق فهذا يستدعي منهم تحقيق التعايش والسلم المجتمعي فيما بينهم.

ثالثا: الإقرار بمبدأ التنوع :

بعد التأكيد على وحدة الأصل الإنساني جاء الإقرار بمبدأ التنوع بمعنى أن وحدة الأصل لا تقتضي أن يعيش الناس في مجتمع وأحد وإنما هم يتفرقون شعوبا وقبائل.

ولما كان الله تعالى : "بث منهما رجالا كثيرا ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل وأحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك، التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم

(١) ينظر: تفسير السعدي ص:٨٠٢ .

شعوبًا وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله، أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله، ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك، ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلا بما يستحق"[١] .

رابعا: الوحدة الإنسانية بين أجناس البشر :

تقدم الآية مفهوم التعارف بوصفه المفهوم الرئيس الذي يمكنه أن يؤطر العلاقة بين البشر دون بقية المفاهيم، أن القرآن لم يلجأ إلى استخدام أخرى بديلة كالحوار أو التعاون لتحل محل التعارف لسببين:

الأول: أن التعارف هو الشرط اللازم لنجاح الحوار وحدوث التعاون المثمر .

والثاني: أن التعارف هو الوحيد الكفيل بإزالة مسببات الصراع والنزاع والصدام وليس الحوار لأنه يتضمن معاني التفهم والاعتراف باختلاف المصالح والاهتمامات.

ولذلك فالرسالة الإسلامية هي: "إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية علي صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقدا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من ابناء جنس وأحد وأمة وأحدة، إلا الحضارة الإسلامية فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب"[٢] .

(١) ينظر: تفسير السعدي ص:٨٠٢ .

(٢) مقتطفات من كتاب من روائع حضارتنا ،مصطفى بن حسني السباعي (ت: ١٣٨٤هـ) ،دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، المكتب الإسلامي ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ص:٧٣ .

الخاتمة :

وبعد هذا العرض الموجز لعدد من آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن التنوع اذكر أهم النتائج التي توصل إليها الباحث :

١. أن التنوع الإنساني حقيقة واضحة المعالم في القرآن الكريم لا يمكن اغفالها أو إهمالها ، وإنما يجب دراستها والإفادة من وجودها في بني البشر .

٢. أن هذا التنوع هو سنة كونية في خلق الله سبحانه وتعالى المقصد منه التواصل إلى معايير تسهم في تحيق السلم المجتمعي .

٣. هذا التنوع والاختلاف في الجنس واللون واللغة مصدره وأحد وهو الخالق له سبحانه وتعالى وعليه فهو ظاهرة صحية يمكن الافادة منها في بناء أسس قوية كي ينطلق منها في بناء المجتمع وتحقيق السلم والتعايش بين أفرده .

٤. هذا التنوع الذي وجود في القرآن الكريم لا يمكن القضاء عليه ابداً فهو موجود مع وجود الخليقة ، وعليه لا يمكن القضاء على الثقافات الاخرى ابدا ، فكما أننا نتعايش مع الآخرين على اختلاف ألونهم ولغاتهم كذلك لا بد من التعايش ثقافيا وفكريا مع بني البشر مع الحفاظ على الهوية الإسلامية وعدم تذويبها .

المصادر والمراجع

١.بحر العلوم ،أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ) ،تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر – بيروت .

٢.بغية الوعاة، للسيوطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبى بمصر، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م٠

٣.التعريفات، الجرجاني ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٤.التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الوأحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ) عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.

٥.تفسير الماوردي ،النكت والعيون، للماوردي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان .

٦.تهذيب اللغة ، الأزهري ،تحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت،ط١،٢٠٠١م .

٧.تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السعدي ، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م .

٨.جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

٩.الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، الثعلبي" المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٠. حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، للسيوطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م٠

١١. الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلانى، حيدر أباد الدكن بالهند،ط١، ١٩٣٠م٠

١٢. زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت،ط١.

١٣. السلم الاجتماعي في القرآن الكريم مركزيته وأبعاده الحضارية ، د. محمد زرمان ، مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ، جامعة باته .

١٤. سير أعلام النبلاء، للذهبى، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م٠

١٥. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (ت: ٥٧٣هـ) ،المحقق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد الله ،دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية) ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

١٦. الصحاح تاج اللغة العربية تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ط. دار العلم للملايين بيروت لبنان عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ط. الثالثة.

١٧. لسان العرب ، ابن منظور ،تحقق : عبد الله علي الكبير وآخرومن، القاهرة ، مصر .

١٨. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ) المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٩. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ،أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت: نحو ٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية - بيروت .

٢٠. معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ت: ٥١٦هـ، مطبوع مع تفسير الخازن، طبع المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٢١. معجم اللغة العربية المعاصرة ،د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل ، عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٢٢. معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢٣. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة:الثالثة ١٤٢٠ هـ.

٢٤. مفتاح دار السعادة، للإمام محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، ت: ٧٥١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٥. مقتطفات من كتاب من روائع حضارتنا ،مصطفى بن حسني السباعي (ت: ١٣٨٤هـ) ،دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، المكتب الإسلامي ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .